تفسير سورةُ المؤمنون

من آية (78) إلى آية (100)

اللقاء السابع

المعنى الإجمالي من آية (62) إلى آية (77):

يُخبِرُ اللهُ تعالى عن الكافِرينَ أنَّ قُلوبَهم في جَهالةٍ وغَفلةٍ عنِ القُرآنِ الكريمِ، وأنَّ لهم أعمالًا سيِّئةً كثيرةً دونَ أعمالِ المؤمِنينَ الصَّالحةِ التي ذكرها اللهُ هم مُستَمِرُّونَ عليها، يُمهِلُهم اللهُ سبحانَه حتَّى يَعمَلوها قبْلَ مَوتِهم؛ فيَحِقَّ عليهمُ العَذابُ.

حتَّى إذا عاقَبَ اللهُ هؤلاء المترَفينَ -الَّذين أبطَرَتْهُمُ النِّعمةُ- بالعذابِ الَّذي يُذِلُّهم، إذا هم يَصْرُخونَ ويَستَغيثونَ، فيُقالُ لهم: لا تَصرُخوا وتَستَغيثوا -أيُّها الكافِرونَ-؛ فلا فائِدةَ مِن هذا الصُّراخِ، ولنْ يُخلِّصَكم مِنَّا أحَدٌ؛ قد كانتْ الآياتُ تُتلَى عليكم، فكُنتُم تُعرِضونَ عنها، حالَ كونِكم مستكبِرينَ بسببِ البيتِ الحرامِ، -تقولونَ: لا يَظهَرُ علينا أحدٌ؛ لأنَّا أهلُ الحَرَمِ-، متحدِّثينَ ليلًا تَهْذونَ في شأنِ القرآنِ، وتقولونَ فيه الباطلَ.

يقولُ تعالى: ألم يَتدبَّرْ أولئك المشرِكونَ القُرآنَ، أمْ جاءهم فيه ما لمْ يأْتِ آباءَهم الأوَّلينَ حتَّى استبعَدوه وأعرَضُوا عنه؟! أمْ لم يَعرِفوا رَسولَهم محمَّدًا صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأنَّه الصَّادِقُ الأمينُ، فأنكَروا ما جاء به؟! أمْ يقولون عنه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: به جنونٌ؟! كلَّا! فليس ما تقدَّم هو سببَ رفضِهم الإيمانَ وتوحيدَ الله، بل السببُ أنَّ الرَّسولَ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ جاءَهم بالحَقِّ الثَّابِتِ، وأكثَرُهم كارِهونَ للحَقِّ؛ لأنَّه يَتعارَضُ مع أهوائِهم، ولوِ اتَّبَعَ الحقُّ أهواءَ المشرِكينَ، لَفسَدَتِ السَّمَواتُ والأرضُ ومَن فِيهِنَّ، بلْ أتَيناهم بالقُرآنِ الكريمِ الَّذي فيه شَرَفُهم ومَجْدُهم، ولكِنَّهم عنه مُعرِضونَ!

أم تَسألُهم -يا مُحمَّدُ- أجْرًا على ما جِئْتَهم به مِنَ الحقِّ، فيَمنَعُهم ذلك مِن اتِّباعِه؟! لا، ليس الأمرُ كذلك؛ فثَوابُ اللهِ تعالى على ما تُبلِّغُه مِن رسالتِه خيرٌ لك وأعظَمُ مِن عَطاءِ هؤلاءِ الضُّعفاءِ الَّذين لا يَستَغنونَ أبدًا عن عطاءِ الله تعالى، واللهُ تعالى هو خيرُ الرَّازِقينَ.

يُخاطِبُ اللهُ تعالى نَبيَّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قائلًا: إنَّك -يا محمَّدُ- تَدْعُو قَومَك إلى الإسلامِ؛ وهو الدِّينُ القويمُ، ولكِنَّ هؤلاء الَّذين لا يُؤمِنونَ بالآخِرةِ مُنحَرِفونَ عن ذلك الصِّراطِ المستقيمِ إلى غَيرِه.

ويبيِّنُ تعالى أنَّه لو رَحِمهم وكشَفَ عنهم ما أصابهم مِن ضُرٍّ في الدنيا، لَتَمادَوْا في الكُفرِ والعِنادِ والضلالِ الذي تجاوَزوا به الحدَّ، وهم يتردَّدونَ متحيِّرينَ، لا يُفَرِّقونَ بينَ الحقِّ والباطلِ.

ويخبِرُ تعالى أنَّه قد أخَذَهم بالعذابِ في الدنيا؛ كإصابتِهم بالفقرِ والجوعِ وغيرِ ذلك، فما خَضَعوا لربِّهم، وما تَضَرَّعوا إليه سُبحانَه بالدُّعاءِ الخالِصِ لِيَكشِفَ عنهم البَلاءَ الَّذي حلَّ بهم، بلِ استمَرُّوا على

جُحودِهم وعِنادِهم، حتَّى إذا فتَح اللهُ عليهم بابًا مِنَ العذابِ الشَّديدِ إذا هم فيه نادِمونَ على ما فَعلوه مِن كفرٍ وتكذيبٍ بالحقِّ، آيِسُونَ مِن كلِّ نَجاةٍ!

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ ﴿78﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها: قال المراغي: بعدَ أنْ ذَكَر سبحانَه إعراضَ المشركينَ عن سماعِ الأدلَّةِ، ورؤيةِ العِبَرِ والتأمُّلِ في الحقائقِ- أردفَ ذلك الامتِنانَ على عبادِه بأنَّه قد أعطاهم الحواسَّ؛ مِن السمعِ والبصرِ وغيرِهما، ووفَّقهم لاستعمالِها، وكان مِن حقِّهم أن يَسْتفيدوا بها؛ لِيَستبينَ لهم الرُّشدُ مِن الغَيِّ، لكنَّها لم تُغْنِ عنهم شيئًا، فكأنَّهم فقدوها، كما قال: (فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ) [الأحقاف: 26].

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ) أي: واللهُ وَحْدَه هو الَّذي أوجَدَ لكم السَّمعَ الَّذي تَسمَعونَ به، والأبصارَ الَّتي تُبصِرونَ بها، والقُلوبَ الَّتي تَعقِلونَ بها، فتَنتَفِعونَ بها في مَصالِحِ دِينِكم ودُنياكم. موسوعة التفسير

قال الشوكاني: فذَكَر أنَّه قد جعَلَ لهم ما يُدرِكونَ به المسموعاتِ والمبصَراتِ والمعقولاتِ؛ إيضاحًا للحُجَّةِ، وقَطعًا للمَعذِرةِ، وذمًّا لهم على عدَمِ شُكرِ نِعَمِ اللهِ.

قال ابنُ جرير: (يقول تعالى ذِكرُه: واللهُ الذي أحدَث لكم -أيُّها المكذِّبون بالبعثِ بعدَ المماتِ- السمعَ الذي تسمعونَ به، والأبصارَ التي تُبصرونَ بها، والأفئدةَ التي تفقهونَ بها؛ فكيف يتعذَّرُ على مَن أنشأَ ذلك ابتِداءً إعادتُه بعدَ عدمِه وفقْدِه، وهو الذي يُوجِدُ ذلك كلَّه إذا شاء، ويُفنيه إذا أراد؟!).

(قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ) أي: لا تَشْكُرونَ اللهَ إلَّا شُكرًا قليلًا على ما أنْعَمَ به عليكم. موسوعة التفسير

قال ابن عثيمين: فيه ثلاثةُ مَعانٍ: أحدُها: إظهارُ النِّعمةِ. وثانيها: مُطالَبةُ العبادِ بالشُّكرِ عليها. وثالِثُها: الإخبار أنَّ الشَّاكِرَ قَليلٌ، والشُّكرُ هو القيامُ بطاعةِ المنعِمِ إقرارًا بالقَلبِ، واعترافًا باللِّسانِ، وعَمَلًا بالأركانِ، فيَعترِفُ بقَلبِه أنَّها مِن اللهِ، كذلك أيضًا يتحَدَّثُ بها بلِسانِه اعترافًا لا افتِخارًا، وكذلك أيضًا يقومُ بطاعةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى بجَوارِحِه؛ وبهذه الأركانِ الثَّلاثةِ يكونُ الشُّكرُ.

قال ابن تيمية: هذه الأعضاءُ الثَّلاثةُ هي أمَّهاتُ ما يُنالُ به العِلمُ ويُدرَكُ، أعني العِلمَ الذي يمتازُ به البَشَرُ عن سائِرِ الحيواناتِ دونَ ما يُشارِكُها فيه مِنَ الشَّمِّ والذَّوقِ واللَّمسِ، وهنا يُدرِكُ به ما يُحِبُّ ويَكرَهُ، وما يميِّزُ به بينَ مَن يُحسِنُ إليه ومَن يُسيءُ إليه... وقال فيما لكُلِّ عُضوٍ مِن هذه الأعضاءِ مِن العَمَلِ والقُوَّةِ: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا) [الأعراف: 179].

عبادة الشكر: عبادة قلبية وهي من مقامات القلوب وإن شملت الجوارح... وهي يسيرة على من يسرها الله عليه، ولكنها في الخلق قليل، تمثلها الأنبياء عليهم السلام وانتفع بها السالكون لنهجهم، وأهلك الله بإنكارها أمماً، وقصم جبارين ما رعوها حق رعايتها، إنها عبودية السراء... ولعظيم قدر الشكر

قرنه الله بالإيمان وجعله سبباً مانعاً من عذابه فقال: (مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ) [النساء: 147].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: "الشكر نصف الإيمان".

وأخبر سبحانه أن الشكر هو الغاية من خلقه وأمره، بل هو الغاية التي خلق عبيده لأجلها (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) [النحل:78].

وإذا كان الشكر غاية الخلق، فهو غاية إرسال رسوله أثنى الله على أول رسول بعثه إلى أهل الأرض بالشكر فقال عن نوح عليه السلام (ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً) [الاسراء:3].

أول وصية وصى الله بها الإنسان بعدما عقل عنه بالشكر له وللوالدين (وَوَصَّيْنَا الْأِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ) [لقمان:14].

وخلق الله الليل والنهار للتفكر والشكر: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا)[الفرقان: 62] وبالشكر ينقسم الناس إلى شكورٍ وكفور: (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)[الإنسان: 3] بل وجعله لازماً من لوازم العبادة: (وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) [البقرة: 172] وبه أمرَ الله أنبيائه وسيد المرسلين محمد -ﷺ-: فقال تعالى: (بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ) [الزمر: 66] وقطع الله بالمزيد مع الشكر ولم يستثن (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) [إبراهيم:7].

والشكر هو وصية سيد المرسلين-ﷺ-لأصحابه وأتباعه، فقد جاء في الحديث الصحيح: "يا معاذ، أني أحبُّك، فلا تدعنّ أن تقول دبرَ كلّ صلاة: اللَّهمَّ أعنِّي على ذِكْرِكَ، وشُكْرِكَ، وحُسنِ عبادتِكَ " صحيح أبي داود ... ولا شك أن دعاء العبد ربَّه أن يعينه على الذكر والشكر والعبادة لهو من أفضل الأدعية، إن لم يكن أفضلها، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "تأمّلتُ أفضلَ الدعاء فإذا هو: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك".

ولما علم عدوُّ الله إبليس قدرَ مقام الشكر وأنه من أجلِّ العبادات وأعلاها، جعل غايتَه السعيَ في قطع الناس عنه فقال: (ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ) [الأعراف: 17] .....

والشكر خلق من أخلاق الربوبية (وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ) [التغابن:17]، وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ) [الزمر:74]، وقال (وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) [يونس:10].

فالشكر سبب لحفظ النعم الموجودة، وجلبٌ للنعم المفقودة، يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (النعمة موصولةٌ بالشكر، والشكر يتعلّق بالمزيد، ولا ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد).

ويقول الفضيل بن عياض رحمه الله: "عليكم بملازمة الشكر على النعم، فقلَّ نعمةٌ زالت عن قوم فعادت إليهم".

وشُكر الله يكون بالقلب واللسان والجوارح: فيكون بالقلب وذلك بنسبة النعم إلى بارئها، والاعتراف بفضله وكرمه ومنته والشعور بالعجز عن شكرها، قال جل وعلا: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾، ويكون الشكر باللسان بالإكثار من حمد الله وشكره والثناء عليه، يقول -ﷺ-: ((الحمد لله تملأ الميزان))، والشكرُ بالجوارح يكون باستعمالها في مرضاة الله، ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وهذا يصحح الفهم عند بعض الناس حين يظنون أن الشكر مجرد حديث اللسان، فهذا مع أهميته فلا بد من صدق القلب ومحبته لمن يشكره وخوفه من عقابه والجوارح تصدق هذا أو تكذبه.

إن الشكر ليس بالكلام فقط ... بل لا بد أن يستقيم العبد على طاعة الله، وينتهي عن معصيته، وأن يستخدم ما أكرمه الله به من النعم في طاعة الله.

وأين هذا الشكر ممن غرِق في شهواته المحرمة، يُمِدُّهُ ربهُ بالنعم والصحة والقوة في بدنه، ويحفظُ له سمعه وبصره، ويديه ورجليه، وعقله وقلبه ، وسائر جوارحه، ويحوطه برعايته في مأكله ومشربه، وفي نومه ويقظته، وفي كل حركة من حركاته، وسكنة من سكناته، ونبضة من نبضات قلبه، ثم هو شديد الفقر لربه، دائم الحاجة لمولاه، ضعيف مسكين، لا يتحمل أدنى مرض ولا أقل حرمان، فكيف بمن هذا حاله وفقره، وضعفه وحاجته، ثم هو يبارز ربه بالمعاصي والمنكرات، كيف يتقوى بنعم الله على معصيته، كيف يغفل عن نفسه وما بها من منن الله، وكيف يعرضُ عن الله ، ويعرّضُ نفسه بقبيح أفعاله وأقواله لوعيد الله وسخطه، وكيف يتمادى في الخطايا ويسعى إليها وهو يعلم شؤم عاقبتها، ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾.... اللهم فأصلح ما فسد من أحوالنا ولا تجعلنا ممن يتقوى بنعمك على معاصيك ....

﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ ﴿79﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: واللهُ هو الَّذي خلَقَكم وبثَّكُم -أيُّها النَّاسُ- بالتَّناسُلِ في سائِرِ جِهاتِ الأرضِ، على اختِلافِ أجناسِكم وصِفاتِكم ولُغاتِكم. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾[النساء: 1].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم: 20].

﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: وإلى اللهِ وَحْدَه تُجمَعونَ يومَ القيامةِ، فيُحْييكم بَعْدَ مَوتِكم لِيُحاسِبَكم ويُجازِيَكم بما عَمِلتُم مِن خَيرٍ وشَرٍّ. موسوعة التفسير

﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿80﴾

(وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ) أي: واللهُ وَحْدَه الَّذي يُحْيي خَلْقَه بنَفخِ الرُّوحِ فيهم، وهو يُميتُهم بَعدَ أنْ أحْياهم. موسوعة التفسير

مُناسَبتُها لِمَا قَبْلَها: قال ابن عاشور: لَمَّا كان مِن الإحياءِ خَلقُ الإيقاظِ، ومِن الإماتةِ خَلقُ النَّومِ، كما قال تعالى: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا [الزمر: 42] الآيةَ؛ عَطَف على ذلك أنَّ بقُدرتِه اختِلافَ اللَّيلِ والنَّهارِ؛ لتِلك المناسَبةِ.

قال البقاعي: وأيضًا لَمَّا كانت حَقيقةُ البَعثِ إيجادَ الشَّيءِ كما هو بَعْدَ إعْدامِه؛ ذَكَّرَهم بأمْرٍ طالَمَا لابَسوهُ وعالَجوهُ ومارسوهُ، فقال

(وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) أي: ولله وَحْدَه اختِلافُ اللَّيلِ والنَّهارِ، فهو الذي جعَلَهما يَتناوبانِ ويتعاقبانِ بقُدرتِه سُبحانَه، فيَذهبُ باللَّيلِ، ويأْتي بالنَّهارِ، ثُمَّ يَذهبُ بالنَّهارِ، ويأْتي باللَّيلِ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ) [يونس: 6].

(أَفَلَا تَعْقِلُونَ) أي: أفليسَتْ لكم عُقولٌ تُدرِكونَ بها أنَّ الَّذي خلَقَ لكم السَّمعَ والأبصارَ والأفئدةَ، وذرَأكم في الأرضِ، ويُحْيي ويُميتُ، وله اختِلافُ اللَّيلِ والنَّهارِ -هو المستحِقُّ للعِبادةِ وَحْدَه لا شَريكَ له، وأنَّه القادِرُ على بَعْثِكم بَعدَ مَوتِكم. موسوعة التفسير

﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ ﴿81﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها: قال الرازي: لَمَّا أوضَحَ اللهُ سُبحانَه القولَ في دَلائلِ التَّوحيدِ؛ عقَّبَه بذِكْرِ المعادِ، فقال: بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ في إنْكارِ البَعثِ مع وُضوحِ الدَّلائلِ

(بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ) أي: هم لا يَعقِلونَ تلك الأدِلَّةَ والحُجَجَ، ولا يَعتَبِرونَ بها، ولكنَّهم يقولونَ بإنكارِ البَعثِ بَعدَ الموتِ، كما قال أسلافُهم المكذِّبون به. موسوعة التفسير

﴿قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ ﴿82﴾

(قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ) أي: قالوا: أإذا مِتْنا وصِرْنا تُرابًا وعِظامًا في قُبورِنا، أإنَّا لَمُعادونَ بَعدَ ذلك أحياءً؟! ذلك أمْرٌ لا يُعقَلُ، ولا يكونُ أبدًا. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ) [الواقعة: 47-48].

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿83﴾

(لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ) أي: لقد سبَق أنْ وُعِدَ آباؤُنا مِن قَبْلِنا بالبَعثِ، كما وُعِدْنا نحنُ به، ولم نَرَ له حَقيقةً. موسوعة التفسير

وقال الشنقيطي: (والظَّاهِرُ أنَّهم يَعْنُونَ أجدادَهم، الَّذينَ جاءَتهم الرُّسلُ، وأخْبَرَتهم بأنَّهم يُبْعَثونَ بعدَ الموتِ للحسابِ والجزاءِ).

(إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) أي: ما هذا البَعثُ الَّذي وُعِدْنا به إلَّا أخبارٌ باطِلةٌ، وقَصَصٌ وأحاديثُ خُرافيَّةٌ، ورِواياتٌ مُخْتَلَقةٌ لا صِحَّةَ لها، سطَّرَها الأوَّلونَ في كُتُبِهم؛ بقَصدِ المسامَرةِ والتَّلهِّي بها. موسوعة التفسير

﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿84﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها: قال ابن حيان: لَمَّا اتَّخَذَ المشرِكون مِن دُونِ اللهِ تعالى آلهةً، ونَسَبوا إليه الولَدَ، نبَّهَهم على فَرْطِ جَهْلِهم بكَونِهم يُقِرُّون بأنَّه تعالى له الأرضُ ومَن فيها مِلْكٌ، وأنَّه رَبُّ العالَمِ العُلويِّ، وأنَّه مالِكُ كلِّ شَيءٍ، وهم مع ذلك يَنْسُبون له الولَدَ، ويتَّخِذونَ له شُركاءَ!

قال البقاعي: وأيضًا لَمَّا أنكَرَ المشرِكونَ البَعثَ هذا الإنكارَ المؤكَّدَ، ونَفَوهُ هذا النَّفيَ المحتَّمَ؛ أمَرَهُ أنْ يُقرِّرَهم بأشياءَ هُمْ بها مُقِرُّون، ولها عارِفونَ، يَلْزَمُهم مِن تَسليمِها الإقرارُ بالبعثِ قطْعًا، فقال

(قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لِقَومِك المشرِكينَ المكَذِّبينَ بالبَعثِ: لِمَن مُلْكُ الأرضِ ومَن فيها مِن الخَلْقِ، إنْ كنتُم تَعلَمونَ مَن هو مالِكُ ذلك وخالِقُه. موسوعة التفسير

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿85﴾

(سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) أي: سيقولُ المشرِكونَ: الأرضُ ومَن فيها للهِ، فقُلْ لهم حينَ يُجيبونَك بذلك: أفلَا تتأمَّلونَ وتتفكَّرونَ، فتتذَكَّرونَ ما هو معلومٌ عندكم، ومُستقِرٌّ في فِطَرِكم؛ مِن أنَّ الَّذي قدَرَ على خلْقِ ذلك كُلِّه هو المستحِقُّ للعِبادةِ وَحْدَه، فتُخلِصونَ له، وتَعلَمونَ قُدْرتَه على بَعثِ خَلقِه أحياءً يومَ القيامةِ. موسوعة التفسير

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿86﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها: قال البقاعي: لما ذكَّرَهم اللهُ تعالى بالعالَمِ السُّفليِّ لِقُرْبِه؛ تلاهُ بالعُلويِّ؛ لأنَّه أعظَمُ، فقال على ذلك المِنوالِ مُرَقِّيًا لهم إليه

(قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لقَومِك: مَن خالِقُ السَّمواتِ السَّبْعِ ومالِكُها ومدَبِّرُها، ومَن خالِقُ العرشِ الكبيرِ الواسِعِ المحيطِ بجَميعِ المخلوقاتِ ومالِكُه ومدَبِّرُه. موسوعة التفسير

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿87﴾

(سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ) أي: سيَقولُ المشرِكونَ: ذلك كلُّه للهِ؛ فالسَّمواتُ السَّبْعُ والعَرشُ العظيمُ مِلكٌ للهِ وَحْدَه، فقُلْ لهم حينَ يُجيبونك بذلك: أفلَا تتَّقونَ سَخَطَ اللهِ وغضَبَه وعذابَه، والحالُ أنَّه كامِلُ القُدرةِ، عظيمُ السُّلطانِ، فتتوبونَ مِن شِرْكِكم به، ووَصْفِكم له بما لا يَليقُ به سُبحانَه، وتَكذيبِكم رسولَه. موسوعة التفسير

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿88﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها: لَمَّا قرَّرهم بالعالَمَينِ: العُلويِّ والسُّفليِّ، أمَرَه بأنْ يُقرِّرَهم بما هو أعَمُّ منهما وأعظَمُ، فقال

(قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ) أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِقَومِك المشركِينَ: مَنِ الَّذي بيَدِه مُلكُ كلِّ شَيءٍ في السَّمواتِ والأرضِ، المتصرِّفُ فيه بقُدرتِه ومَشيئتِه. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا) [هود: 56].

(وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) أي: وهو الَّذي يَمنَعُ مَن يَشاءُ مِن عِبادِه ممَّن يُريدُ به السُّوءَ والضُّرَّ، ولا يَقدِرُ أحدٌ أنْ يَمنَعَ السُّوءَ والضُّرَّ عن أحدٍ إذا شاء اللهُ به ذلك، إنْ كنتُم تَعلمونَ عظَمةَ اللهِ، وأنَّه قادِرٌ على كلِّ شَيءٍ، وبِيَدِه مَلكوتُ كُلِّ شَيءٍ. موسوعة التفسير

قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الحديث القدسي: "إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِ"

قال القُرطبيُّ: (قيلَ: هذا في الدُّنيا، أي: مَن أراد اللهُ إهْلاكَه وخَوْفَه لم يَمْنَعْه منه مانعٌ، ومَن أراد نَصْرَه وأمْنَه لم يَدْفَعْه مِن نَصْرِه وأمْنِه دافِعٌ. وقيلَ: هذا في الآخرةِ، أي: لا يَمْنَعُه مِن مُستحَقِّ الثَّوابِ مانعٌ، ولا يَدفَعُه عن مُستوجِبِ العذابِ دافِعٌ).

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ ﴿89﴾

(سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ) أي: سيقولُ المشرِكون: ذلك كُلُّه للهِ؛ فالمالِكُ لكُلِّ شَيءٍ الَّذي يُجيرُ ولا يُجارُ عليه هو اللهُ، وهو المختَصُّ بذلك وَحْدَه، فقُلْ لهم حين يُجيبونَك بذلك: فكيف يُخَيَّلُ إليكم الباطِلُ حقًّا، فتُخدَعونَ وتُصْرَفونَ عن اتِّباعِ الحَقِّ، وتَذهَبُ عُقولُكم مع ظُهورِه؛ فلا تُوحِّدونَه سُبحانَه في عِبادتِه، ولا تُؤمِنونَ بقُدرتِه على بَعثِكم أحياءً بَعدَ مَوتِكم. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ) [يونس: 31، 32].

﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ﴿90﴾

(بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) أي: بلْ أتَيْناهم بالحقِّ، وإنَّ المشرِكينَ لَكاذِبونَ في دَعْواهم الشَّريكَ والوَلَدَ للهِ سُبحانَه، ونَفْيِهم البَعثَ. موسوعة التفسير

قال ابنُ جرير: (يقولُ: ما الأمرُ كما يزعمُ هؤلاءِ المشركونَ باللهِ مِن أنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ، وأنَّ الآلهةَ والأصنامَ آلهةٌ دونَ اللهِ).

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿91﴾

(مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ) أي: ما اتَّخَذ اللهُ لنَفْسِه -تعالى- ولدًا كما يَزْعُمُ النَّصارى ومُشركو العَرَبِ وغيرُهم. موسوعة التفسير

(وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ) أي: ولم يكُنْ مع اللهِ شَريكٌ يَستَحِقُّ أنْ يُعبَدَ معه. موسوعة التفسير

قال ابنُ جرير: (ولا كان معه في القديمِ، ولا حِينَ ابتَدَعَ الأشياءَ مَن تصلُحُ عبادتُه).

(إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ) أي: لو كان مع اللهِ آلهةٌ أُخرى، لَاعتزَلَ كلُّ إلهٍ بما يَخْلُقُ وانفرَدَ بتَدبيرِه؛ فلا تَنتَظِمُ شُؤونُ الكونِ. موسوعة التفسير

قال السِّعدي: (اعتبِرْ ذلك بالشَّمسِ والقمرِ، والكواكبِ الثابتةِ، والسيَّارةِ؛ فإنَّها منذ خُلِقَت وهي تَجْري على نِظامٍ واحدٍ، وترتيبٍ واحدٍ، كُلُّها مُسخَّرةٌ بالقُدرةِ، مُدَبَّرةٌ بالحكمةِ لمصالحِ الخَلقِ كُلِّهم، ليست مَقْصورةً على مَصلحةِ أحدٍ دونَ أحدٍ، ولنْ تَرى فيها خللًا ولا تناقُضًا، ولا مُعارضةً في أدنى تصرُّفٍ، فهل يُتصَوَّرُ أنْ يكونَ ذلك تَقديرَ إلهينِ ربَّينِ؟!)

(وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ) أي: ولَطلَبَ كلُّ إلهٍ أنْ يعلُوَ على غَيرِه مِن الآلهةِ ويَقهَرَه، فيَغلِبُ القويُّ منهم الضَّعيفَ، ومع هذا التَّمانُعِ والتَّصارُعِ بيْنَ الآلهةِ لا يُمكِنُ وُجودُ العالَمِ، ولا يُمكِنُ أنْ ينتَظِمَ هذا الانتِظامَ العَجيبَ المتَّسِقَ. موسوعة التفسير

(سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ) أي: تنزَّهَ اللهُ عمَّا يَصِفُه المشركونَ مِن اتِّخاذِ الولَدِ، ووُجودِ الشَّريكِ. موسوعة التفسير

﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿92﴾

(عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) أي: عالِمِ ما غابَ عن خَلقِه مِمَّا لم يُشاهِدوه، وعالِمِ ما يَرَونَه ويُشاهِدونَه؛ فلا يَخْفى عليه السِّرُّ ولا العَلانيةُ. موسوعة التفسير

وقال السعدي: (عَالِمِ الْغَيْبِ أي: الذي غاب عن أبصارِنا وعِلمِنا؛ مِن الواجباتِ والمستحيلاتِ والممكناتِ، وَالشَّهَادَةِ وهو ما نشاهدُ مِن ذلك).

(فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) أي: فارتفَعَ اللهُ وتنزَّهَ عن شِركِ المشركينَ، وما يَصِفونَه به مِن العُيوبِ والنَّقائِصِ. موسوعة التفسير

قال ابن تيمية: ولا مِن أهْلِ التَّثليثِ، ولا مِن الصَّابئةِ المشركينَ الَّذين يَعْبُدون الكواكِبَ والملائكةَ، ولا مِن عُبَّادِ الأنبياءِ والصَّالحينَ، ولا مِن عُبَّادِ التَّماثيلِ والقُبورِ وغيرِهم؛ فإنَّ جَميعَ هؤلاءِ -وإنْ كانوا كُفَّارًا

مُشركين مُتنوِّعين في الشِّرْكِ- فهم مُقِرُّونَ بالرَّبِّ الحقِّ الَّذي ليس له مِثْلٌ في ذاتِه وصِفاتِه وجَميعِ أفعالِه، ولكنَّهم مع هذا مُشرِكونَ به في أُلوهيَّتِه؛ بأنْ يَعْبُدوا معه آلهةً أُخرى يَتَّخِذونها شُفعاءَ أو شُركاءَ، أو في رُبوبيَّتِه؛ بأنْ يَجْعَلوا غيرَه ربَّ بَعضِ الكائناتِ دُونَه، مع اعترافِهم بأنَّه ربُّ ذلك الرَّبِّ، وخالِقُ ذلك الخَلْقِ.

﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ ﴿93﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها: قال ابن حيان: لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى ما كان عليه الكُفَّارُ مِن ادِّعاءِ الوَلَدِ والشَّريكِ له، وكان تعالى قد أعلَمَ نَبيَّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه يَنتقِمُ منهم، ولم يُبيِّنْ إذ ذاك هل يقَعُ ذلك في حَياتِه أمْ بَعْدَ موتِه: أمَرَه بأنْ يَدْعوَ بهذا الدُّعاءِ

(قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ) أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ-: يا ربِّ، إنْ أرَيتَني ما وعَدْتَ هؤلاء المشرِكينَ المكذِّبينَ مِن نُزولِ العذابِ بهم. موسوعة التفسير

﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿94﴾

(رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) أي: ربِّ، فنَجِّني حِينذاك، ولا تجْعَلْني فيهم. موسوعة التفسير

قيل: أُمِرَ به صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم هَضْمًا لنَفْسِه؛ إظهارًا للعُبوديَّةِ وتَواضُعًا لرَبِّه، وإخباتًا له. وقيل: لأنَّ شُؤمَ الكَفَرةِ قد يَحِيقُ بمَن وَراءَهُم، كقولِه تعالى: وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً [الأنفال: 25]. الدرر السنية

في تَكريرِ النِّداءِ، ولَفظِ رَبِّ، وتَصديرِ كلٍّ مِن الشَّرطِ والجَزاءِ به في قولِه: قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ * رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ: مُبالَغةٌ في الابتِهالِ إلى اللهِ تعالى والتَّضرُّعِ؛ لإبرازِ كَمالِ الضَّراعةِ والابتهالِ. الدرر السنية

عن ابنِ عبَّاسٍ رضِيَ اللهُ عنهما، عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما يَرويه عن رَبِّه عزَّ وجَلَّ، أنَّه قال: ((يا مُحمَّدُ، إذا صلَّيت فقُلِ: اللَّهُمَّ إنِّي أسأَلُكَ فِعلَ الخَيراتِ، وتَرْكَ المُنْكَراتِ، وحُبَّ المساكينِ، وإذا أردْتَ بعِبادِك فِتنةً فاقبِضْني إليك غيرَ مَفْتونٍ)) صحيح الترمذي.

﴿وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾ ﴿95﴾

(وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ) أي: وإنَّا -يا مُحمَّدُ- على أنْ نُرِيَك ما نَعِدُ المشركِينَ المكذِّبينَ مِن العذابِ لَقادِرونَ، وإنَّما نُؤخِّرُه لِحكمةٍ؛ فلا يَحزُنْك تكذيبُهم. موسوعة التفسير

وقال ابنُ عاشور: (قد تحقَّقَ ذلك فيما حلَّ بالمشركين يومَ بدْرٍ ويومَ حُنَينٍ، فالوعيدُ المذكور هنا وَعيدٌ بعقابٍ في الدُّنيا كما يَقْتضيه قولُه تعالى: فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ).

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ ﴿96﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها: قال ابن عاشور: لَمَّا أنبَأَ اللهُ رسولَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بما يُلمِحُ له بأنَّه مُنجِزٌ وَعيدَه مِنَ الَّذين كذَّبوه، فعَلِمَ الرَّسولُ والمسلِمون أنَّ اللهَ ضَمِنَ لهمُ النَّصرَ؛ أعقبَ ذلك بأنْ أمَرَه

بأنْ يَدفعَ مُكذِّبيه بالَّتي هي أحسَنُ، وألَّا يَضِيقَ بتَكذيبِهم صَدْرُه، فذلك دَفْعُ السَّيِّئةِ بالحَسنةِ كما هو أدَبُ الإسلامِ

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ) أي: ادفَعْ -يا محمَّدُ- أذى أولئك القومِ بالخَصلةِ الَّتي هي أحسَنُ الخِصالِ؛ بأنْ تُحسِنَ إليهم، وتَصفَحَ عنهم، وتَصبِرَ على أذاهُم. موسوعة التفسير

قال ابن عاشور: والتَّخلُّقُ بهذه الآيةِ هو: أنَّ المؤمِنَ الكامِلَ يَنْبَغي له أنْ يُفوِّضَ أمْرَ المعتدينَ عليه إلى اللهِ؛ فهو يَتولَّى الانتصارَ لمن توكَّلَ عليه، وأنَّه إنْ قابَلَ السَّيِّئةَ بالحَسَنةِ، كان انتصارُ اللهِ أشْفى لِصَدْرِه، وأرسَخَ في نَصْرِه، وماذا تَبلُغُ قُدرةُ المخلوقِ تُجاهَ قُدرةِ الخالِقِ، وهو الَّذي هزَمَ الأحزابَ بلا جُيوشٍ ولا فيالِقَ؟! وهكذا كان خلُقُ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فقد كان لا يَنتقِمُ لِنفْسِه، وكان يَدْعُو رَبَّه.

كما قال تعالى: (وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) [فصلت: 34-35].

(نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ) أي: نحنُ أعلَمُ بما يَصِفُ أولئك المشرِكونَ به ربَّهم مِنَ الأكاذيبِ والأباطيلِ المختَلَقةِ؛ كادِّعاءِ الشَّريكِ والولَدِ له سُبحانَه، وبما يقولونَ فيك مِن السُّوءِ. موسوعة التفسير

قال البقاعي: (نَحْنُ أَعْلَمُ أي: مِن كلِّ عالِمٍ، بِمَا يَصِفُونَ في حَقِّك وحَقِّنا).

قال أبو السعود: وَعيدٌ لهم بالجَزاءِ والعُقوبةِ، وتَسليةٌ لرسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإرشادٌ له صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى تَفويضِ أمْرِه إليه تعالى.

﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾﴿97﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها: قال الرازي: لَمَّا أدَّبَ اللهُ سُبحانَه رَسولَه بقولِه: ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ [المؤمنون: 96]، أتْبَعَه بما به يَقْوَى على ذلك؛ وهو الاستِعاذةُ باللهِ مِن أمرينِ: أحدِهما: مِن هَمزاتِ الشَّياطينِ، وثانيهما: قولُه: وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ.

(وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ) أي: وقُلْ -يا محمَّدُ-: يا ربِّ، أعتَصِمُ بك مِن وَساوسِ الشَّياطينِ، ونزَغاتِهم. موسوعة التفسير

قال الشوكاني: (هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ: نَزَغاتُهم ووَساوِسُهم كما قالَه المفسِّرون).

كما قال تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا [مريم: 83].

وقال سبُحانه: وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ * [الزخرف: 36 – 37].

وعن سُلَيمانَ بنِ صُرَدٍ رضِيَ الله عنه، قال: ((كنتُ جالِسًا مع النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ورجُلانِ يَستبَّانِ، فأحدُهما احمَرَّ وجْهُه، وانتفخَتْ أوداجُه، فقال النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنِّي لَأعلَمُ كَلِمةً لو قالها ذهَبَ عنه ما يَجِدُ؛ لو قال: أعوذُ باللهِ مِن الشَّيطانِ، ذهَبَ عنه ما يَجِدُ)) رواه بخاري.

﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾﴿98﴾

(وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ) أي: وأعتصِمُ بك -يا ربِّ- أنْ يَحضُرَ الشَّياطينُ شيئًا مِن أُموري، فيُصِيبوني بشَرٍّ وأذًى. موسوعة التفسير

عن أبي اليَسَرِ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان يَدْعو: ((اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بك أنْ يَتخبَّطَني الشَّيطانُ عندَ الموتِ)) السلسلة الصحيحة.

✿يتخَبَّطَني: أي: يصرَعَني، ويلعبَ بي، ويُفسِدَ ديني وعقلي.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾﴿99﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبلَها: قال البقاعي: لَمَّا كان أضَرُّ أوقاتِ حُضورِ الشَّياطينِ ساعةَ الموتِ، وحالةَ الفوتِ، فإنَّه وقتُ كشْفِ الغِطاءِ، عمَّا كُتِبَ مِنَ القضاءِ، وآنُ اللِّقاءِ، وتَحتُّمِ السُّفولِ أوِ الارتقاءِ- عقَّبَ ذلك بذِكْرِه؛ تنبيهًا على بَذلِ الجُهدِ في الدُّعاءِ، والتَّضرُّعِ للعِصمةِ فيه، فقال

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ) أي: حتَّى إذا حضَرَتِ الوَفاةُ أحدَ المفرِّطينَ الظَّالِمينَ، فانكشَفَ له الغِطاءُ، وظهَرَ له الحَقُّ، ولاحَتْ له أماراتُ العذابِ؛ قال نادمًا: يا ربِّ، ارجِعُوني إلى الدُّنيا. موسوعة التفسير

قال القرطبي: (ليس سُؤالُ الرَّجعةِ مُختصًّا بالكافِرِ؛ فقد يَسألُها المؤمِنُ كما في آخِرِ سُورةِ المنافِقينَ).

قال ابنُ كثير: (يخبِرُ تعالى عن حالِ المحتَضَرِ عند الموتِ مِن الكافِرينَ أو المفَرِّطينَ في أمرِ اللهِ تعالى، وقِيلِهم عندَ ذلك، وسُؤالِهم الرَّجعةَ إلى الدُّنيا؛ لِيُصلِحَ ما كان أفسَدَه في مُدَّةِ حَياتِه).

قال القرطبي: دلَّتِ الآيةُ على أنَّ أحدًا لا يَموتُ حتَّى يَعرِفَ اضطرارًا أهو مِن أولياءِ اللهِ أمْ مِن أعداءِ اللهِ، ولولَا ذلك لَمَا سأَلَ الرَّجعةَ، فيَعْلَموا ذلك قبلَ نُزولِ الموتِ وذَوَاقِه.

كما قال تعالى: وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ [المنافقون: 10].

﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾﴿100﴾

(لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ) أي: لِأعمَلَ عمَلًا صالحًا أستَدْرِكُ به ما ضيَّعتُه وفرَّطْتُ فيه مِنَ الإيمانِ وما يتبعُه مِن الطَّاعاتِ. موسوعة التفسير

قال الشنقيطي: (والعملُ الصَّالحُ يشملُ جميعَ الأعمالِ؛ مِن الشَّهادتينِ، والحجِّ الَّذي كانَ قد فرَّط فيه، والصَّلواتِ، والزَّكاةِ، ونحوِ ذلك).

(كَلَّا) أي: ليس الأمرُ كما قال هذا الظَّالمُ لنَفْسِه؛ فلنْ يَستجيبَ اللهُ طلَبَ إمهالِه وإرجاعِه إلى الدُّنيا لِيعمَلَ صالحًا. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا [المنافقون: 11].

(إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا) أي: إنَّ طلَبَه الرُّجوعَ إلى الدُّنيا مُجَرَّدُ كلامٍ يقولُه الظَّالمُ حين تَحضُرُه الوَفاةُ. موسوعة التفسير

(وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) أي: ومِن أمامِ هؤلاء الموتى حاجِزٌ بيْنَ الدُّنيا والآخرةِ يَحجُزُهم عن الرُّجوعِ إلى الدُّنيا، مِن وقْتِ مَوتِهم إلى يومِ القِيامةِ الَّذي يَبعَثُ اللهُ فيه النَّاسَ أحياءً مِن قُبورِهم. موسوعة التفسير

عندما تتوقف الأنفاس وينتهي الأجل ويحين موعد الانتقال يتمنى كل مفرط لو رجع وعاد ولكن هيهات هيهات، ضرب البرزخ وتحولت الدار وتغيرت الأحوال حيث لا آمال ولا أعمال وإنما هو حساب وجزاء.

قال السعدي: يخبر تعالى عن حال من حضره الموت، من المفرطين الظالمين، أنه يندم في تلك الحال، إذا رأى مآله، وشاهد قبح أعماله فيطلب الرجعة إلى الدنيا، لا للتمتع بلذاتها واقتطاف شهواتها وإنما ذلك يقول: (لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ) من العمل، وفرطت في جنب الله. (كَلا) أي: لا رجعة له ولا إمهال، قد قضى الله أنهم إليها لا يرجعون، (إِنَّهَا) أي: مقالته التي تمنى فيها الرجوع إلى الدنيا (كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا) أي: مجرد قول باللسان، لا يفيد صاحبه إلا الحسرة والندم، وهو أيضا غير صادق في ذلك، فإنه لو رد لعاد لما نهي عنه.

(وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) أي: من أمامهم وبين أيديهم برزخ، وهو الحاجز بين الشيئين، فهو هنا: الحاجز بين الدنيا والآخرة، وفي هذا البرزخ، يتنعم المطيعون، ويعذب العاصون، من موتهم إلى يوم يبعثون، أي: فليعدوا له عدته، وليأخذوا له أهبته.

قال قَتادةُ: (طلَبَ الرُّجوعَ لِيَعمَلَ صالحًا، لا لِيَجمعَ الدُّنيا، ويَقضيَ الشَّهَواتِ؛ فرحِمَ اللهُ امرَأً عَمِلَ فيما يَتمنَّاهُ الكافرُ إذا رأى العَذابَ).

إن أمنية الكثير من الناس في هذه الحياة لا تزيد على وظيفةٍ مرموقة، وزوجة جميلة، ومركبٍ هنيءٍ، وبيتٍ واسعٍ، وأملاكٍ وعقاراتٍ، وتمشياتٍ وسهراتٍ، وحضور ولائم وحفلات.

أما الأموات، فماذا يريدون من دنيا رحلوا عنها، وانخدعوا بها، وعرفوا حقيقتها، وخلَّفوها وراء ظهورهم بلا رجعة؟

قالَ رَسولُ اللَّهِ -ﷺ-: " إذَا وُضِعَتِ الجِنَازَةُ، فَاحْتَمَلَهَا الرِّجَالُ علَى أعْنَاقِهِمْ، فإنْ كَانَتْ صَالِحَةً قالَتْ: قَدِّمُونِي، قَدِّمُونِي، وإنْ كَانَتْ غيرَ صَالِحَةٍ قالَتْ: يا ويْلَهَا، أيْنَ يَذْهَبُونَ بهَا؟ يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلُّ شيءٍ إلَّا الإنْسَانَ، ولو سَمِعَهَا الإنْسَانُ لَصَعِقَ" (رواه البخاري).

إن المقصر في جنب الله -تعالى- تمر عليه ساعات أيامه وهو في لهو وغفلة، يُسوِّف التوبة ويأمل في مزيد من العمر، وما علم أن الموت يأتي بغتة، وإذا جاء لا يدع صاحبه يستدرك ما فاته، فيبقى في قبره مرتهنا بعمله، متحسرا على ما فاته، ومتمنيا على الله أمانيَّ لا تغنيه شيئا، فماذا عسى أن يتمنى المقصِّر إذا أصبح في عداد الموتى، يتمنى لو تعود له الحياة ليطيع الله، ليرد حق إنسان.

إن تسبيحة واحدة عندهم خير من الدنيا وما فيها، رسول الله -ﷺ- مر بقبرٍ فقال: "من صاحب هذا القبر؟" فقالوا: فلان، رَكْعتانِ خَفيفتانِ بِما تَحقِرُونَ وتَنفِلُونَ يَزيدُهما هذا في عملِهِ أحَبُّ إليه من بقيَّةِ دُنياكُمْ". صحيح الجامع

عندَما يَموتُ الإنسانُ يُدرِكُ قِيمةَ الأشياءِ على حقيقتِها، فيُدرِكُ أنَّ الأعمالَ الصالحةَ التي تَزِيدُ ثوابَه خيرٌ له من مَتاعِ الدُّنيا كُلِّه.

لقد أدركوا يقينا أنه لا ينفعهم إلا طاعة الله.... فغاية أمنية الموتى في قبورهم حياة ساعة، بل دقيقة، يستدركون فيها ما فاتهم من توبة وعمل صالح، أما نحن أهل الدنيا فمفرطون في أوقاتنا؛ بل في حياتنا، نبحث عما يقتل أوقاتنا، لتذهب أعمارنا سدى في غير طاعة، ومنا من يقطعها بالمعاصي، ولا ندري ماذا تخبئ لنا قبورنا من نعيم أو مآس.

فإذا وُسدت في قبرك فلا أنت إلى دنياك عائد، ولا في حسناتك زائد، إلا إذا قدمت عملاً صالحًا يجري ثوابه بعد مماتك، فاعمل ليوم القيامة قبل الحسرة والندامة.

قال إبراهيم التيمي -رحمه الله تعالى-: "مثَّلتُ نفسي في النار، آكل من زقومها، وأشرب من صديدها، وأعالج سلاسلها وأغلالها، فقلت لنفسي: أي شيء تريدين؟ قالت: أريد أن أُردَّ إلى الدنيا فأعمل صالحا، قال: فقلت: أنتِ في الأمنية فاعملي".

قال أحد الصالحين: لو علمت ما بقي من أجلك لزهدت في طول أملك، ولرغبت في الزيادة من عملك، فاحذر زلل قدمك، وخف طول ندمك، واغتنم وجودك قبل عدمك. واعلم أن الدقيقة التي تمر من حياتك يتمنى مثلها ملايين الموتى ليستثمروها في طاعة الله.